الفصل الثاني عشر

موجة عارمة

هناك تيّار مدّ في أعمال الرجال تصنع السعد عندما تفيض وتغفل رحلة الحياة كلها وتتركهافي العذاب والأطراف على مثل هذا البحر سنطفو ونركب التيار عندما يغدو مناسباً أو نخسر مغامرتنا

وليم شكسبير ـ يوليوس قيصر

بد فترة من التشاحن تلت وفاة بلدوين الأول في سنة 1118 خلفه ابن عمه بلدوين أوف لي بورج الذي اتخذ لنفسه لقب بلدوين الثاني الذي كان أحد الصليبيين الأوائل الذين قدموا مع غود فري أوف بوليون، وعندما جعل بلدوين الأول ملكاً للقدس احتل مكانه في الكونتية في الرها، وقد كانت شجاعته وقدرته العملية بعيدة عن الشك، وهو لم يختر من أجل هذه الميزات، بل إن ميزته الرئيسية كانت في الموقع حيث كان بوستاس أوف بوليون، وهو أخو الملك الأخير وقريبه، قد عاد إلى فرنسا، وكان بلدوين لي بورج ضخم الجسم، جميل الشعر ذا لحية شقراء، بينما ذوقه بسيط، ثم كان متديناً إلى درجة الورع حيث كانت حياته الخاصة فاضلة تماماً، على خلاف سلفه، كما تزوج من سيدة أرمنية مباركة اسمها مورفيا أخلص لها بعمق وصدق.

وفي الوقت الذي توج فه كان قد مات أغلب النبلاء الكبار الحقيقيين الذين لم يعودوا إلى مقاطعاتهم في أوروبا. فقد مات سنة 1105 ريموند أوف تولوز الذي وضع أخيراً هيمنته الصغيرة لنفسه في لبنان وطرطوس عاصمة لها، مات متأثراً من جراحه التي تلقاها قبل أشهر بينما كان يحاول الاستيلاء على

طرابلس. أما بوهموند الذي أمضى سنتين سجيناً لدى الأتراك، فقد عاد إلى أوروبا لدى إطلاق سراحه حيث حاول إقناع البابا بالتبشير لحملة صليبية ضد البيزنطيين، وقد نجح بعض الشيء في ذلك، ولكنه عندما قاد هجوماً ضد القلعة البيزنطية العظيمة في ديراخيوم أو دورازو الحديثة في ألبانيا، هزم تماماً، وبعد هزيمته المخزية وعدم جرأته على العودة إلى الشرق خوفاً من الامبراطور البيزنطي، عاد القهقرى إلى مقاطعته في جنوب إيطاليا، حيث مات في ظروف غامضة سنة 1111، أما تانكرد الذي برهن على كونه محارباً وأكثر الصليبيين قدرة، والذي شابه بلدوين الأول، فقد انطلق كمغامر مفلس ومات بعد سنة قبل عيد الميلاد عن عمر يناهز السادسة والثلاثين عاماً، ولكنه حقق سلطة حقيقية لنفسه كأمير على الجليل، وولي للعد في أنطاكية في غياب بوهموند، وأما ستيفن أوف بليوس الذي دفعته زوجه القاسية أديلا ليعود إلى الشرق، ويرمم سمعته الملطخة، فقد نفذ ذلك بموته في معركة في الرملة، وقد أصاب قدراً مشابهاً هيو أوف فيرماندوس الذي قرر أيضاً العودة إلى الأرض المقدسة، ليحل قسمه بالذهاب إلى القدس، فمات متأثراً من معركة مع الأتراك في طريقه هناك قبل أن يفي بنذره.

ورغم موت الحرس القديم وظهور شخصيات جديدة على مسرح الأحداث في الممالك الصليبية، فقد شعر الإفرنج أنهم نجحوا إلى حد بعيد، وعندما اعتلى بلدوين الثاني العرش، امتد الحكم الأفرنجي من سهول الفرات حول الرها في الشمال عبر أنطاكية ومعظم المدن الساحلية في سورية وفلسطين إلى الخليل وصحراء البحر الميت في الجنوب، وشمل حتى جميع المقاطعات الإسلامية الصغيرة في هذه المنطقة الواسعة، والتي لم يتم إخضاعها بعد، ومع ذلك فقد استقبلت أخبار نجاح الحملة الصليبية الأولى بحماسة شديدة في أوروبا، إلى درجة سببت تدفق حشود صغيرة من المتطوعين الجدد إلى الشرق، وقد قتل العديد من هؤلاء من قبل الأتراك، خلال عبورهم هضبة الأناضول، ولكن الذين وصلوا ساعدوا في تعزيز الإفرنج المقيمين، ولم ينقص موت

الآخرين من الجو العام من الثقة والنجاح اللذين سادا في ذلك الوقت، ولقد كانت ثمة قوى مختلفة محركة في المجتمع الإفرنجي وفي البلدان والامارات الإسلامية المتعددة التي أحاط بها الإفرنج، والتي سرعان ما غيرت بشكل حر ميزان القوى بينهم وبين أعدائهم.

وحتى ذلك الوقت ورغم تشاحن وتخاصم قادة الحملة الصليبية باستمرار بين بعضهم البعض كانوا أوقات الأزمات يقاتلون كتفاً إلى كتف تماماً من أجل حياة عزيزة، وفي نفس الوقت لم يكن خصومهم المسلمون متفرقين في تاريخهم الشامل كما كانوا عندما برز الصليبيون الأوائل في عالمهم، أما تجزئتهم فتعود إلى أسباب عداء عرقية وعاد بعضها إلى المنافسة السياسية وأخرى إلى الطائفية الدينية، وكان العرب الذين فتحوا المقاطعات البيزنطية في سورية ومصر وفلسطين قد كرهوا الأتراك الذين قهروهم بدورهم، واعتبروهم بربراً كما كرهم الفرس في الشمال وقد كان لديهم سبب وجيه أيضاً لكرههم باعتبارهم همجيين غير مدنيين، وانقسم الأتراك إلى قبائل متنافسة تفتقر إلى الحب بينها، كما كان الأتراك السلاجقة متورطين بصراع مع أبناء جلدهم من الدانشمند، ولا حاجة إلى القول أن السكان المحليين في سورية وفلسطين الذين قهروا وغلبوا من قبل العرب[1] والأتراك كانوا يكرهون الطرفين لأن أغلبيتهم من المسيحيين، وحتى أولئك المسلمين بينهم رحبوا بالصليبيين وكانوا مبتهجين بهزيمة فاتحيهم السابقين.

وقد اشتهدت الكراهية العرقية بالمنافسة السياسية الحادة بين الحكام الأتراك في المقاطعات المتعددة ذلك لأنهم كانوا في حالة تباغض شديد بين بعضهم بعضاً فقد ترأستهم طبقة أرستقراطية حكم أعضاءها مدناً هامة مثل حلب ودمشق، وكانوا يتربصون ببعضهم بعضاً مثل الأوشاق في تصميمهم ألا

(1) هذه مغالطة شنيعة فبلاد الشام هي عربية منذ فجر التاريخ، وكان التركمان غرباء، إنما حكموا باسم الإسلام وفي إطار الخلافة العباسية.

يدعوا أحدهم يصبح أقواهم، ويأتي وراءهم عدد من الحكام الصغار والرسميين المتعطشين للسلطة، يقتفون أثر رؤسائهم لأنهم في خصام دائم مع بعضهم، ورغم أن المسلمين كانوا ينظرون إلى أنفسهم كأعداء للصليبيين، فقد كان الحكام المستقلون، عند الضرورة مستعدين للقيام بترتيبات مع الغزاة، وبذلك تمكنوا من تجنب الأذى في هدف أو هدفين دون منافسيهم المسلمين.

ولعل أسوأ أسباب التجزئة في المعسكر المسلم كان الخلاف الديني بين المسلمين الشيعة والمسلمين السنة، وليس ثمة حاجة لوصف الفروق المبدأية، غير أنهم مزقوا العالم الإسلامي شر تمزيق بنفس الطريقة التي خربت فيما بعد الفروق المبدأية بين الكاثوليك والبروتستانت في العالم المسيحي الغربي، وكما في الغرب كذلك في الإسلام استخدمت الخلافات الدينية بين الفئتين المتقاتلتين من قبل أولئك الذين، سخروا السياسة لزيادة قواهم ولخدمة مصالحهم، ووضع الأتراك السلاجقة الخلفاء العباسيين في بغداد تحت جناحهم في سبيل الاستيلاء على بلاد الفرس، في حين كان العباسيون مسلمين سنة ينافسهم الفاطميون الشيعة في مصر، وأعطى هذا مسوغاً مناسباً للسلاجقة لغزو سورية وطرد الفاطميين. رغم أنها كانت جزءاً من عالمهم لعدة سنين. واشتدت المرارة الناتجة عن العداء بين الحزبين المسلمين إلى أبعد الحدود، وتعقدت الكراهية الدينية بوجود الدروز وهم طائفة غريبة من الناس آمنت بألوهية رجل عربي غريب الأطوار يدعى الحاكم، وكان خليفة يحكم القدس في القرنين العاشر والحادي عشر، كما تعقدت أيضاً بظهور فئة عرفت بالحشيشية اختصت بأعمال الاغتيال كسلاح ديني وسياسي، وهم شيعة أيضاً.

ولو لم يكن هناك تجزئة في العالم الإسلامي فإنه من المشكوك فيه نجاح الصليبيين في فتح تلك الأراضي الواسعة، ولكن بعد أن فعلوا ذلك بدأت الأمور بالتغير، وبعد زوال الضرورة تمكن الأمراء المسيحيون من الانغماس في لجة من التشاحن غير المقيد دون وجوب التوحد ضد عدو مشترك من أجل البقاء، في الوقت الذي بدأ فيه المسلمون يحققون ذلك، فإذا كان عليهم أن

يعيدوا أراضيهم التي خسروها، فإنه ينبغي طرح خلافاتهم جانباً وأن يتوحدوا للقيام بذلك، ولم ينجحوا بين ليلة وضحاها، ولكن شوهدت العلامات الأولى لظهور روح جديدة خارج المعسكر المسلم سنة 1119 بعد سنة من تتويج بلدوين لي بورج باسم بلدوين الثاني في القدس، أما في الشمال فقد كان الإفرنج، تحت قيادة روجر ابن أخ تانكرد الذي ورث أمارة أنطاكية ـ يمارسون الضغط على المسلمين في حلب إلى درجة اضطر المدافعون عن المدينة إلى عقد حلف مع تركي يدعى ايلغازي الذي لم يكن معهم على علاقات طيبة حتى ذلك الوقت، وعلى الفور قدم ايلغازي إلى حلب، ولدى وصوله عقد حلفاً آخر مع الحاكم التركي في دمشق، ونبهت أنباء هذا التقارب بين صفوف المسلمين روجر فأرسل رسله إلى بلدوين يحثه على القدوم لمساعدته لدحر هذا الائتلاف الجديد المرعب، بينما لا يزال هناك متسع من الوقت، رد بلدوين الذي كان في طبرية في ذلك الوقت أنه سيقدم بأسرع ما يمكنه.

لكن روجر لم يكن صبوراً، وقرر عدم انتظاره، رغم تحذير بطريرك أنطاكية له أنه يرتكب مخاطرة غير لازمة، وقاد الجيش خارج أنطاكية لمقابلة ايلغازي رغم أن جيشه كان لا يتعدى أربعة آلاف رجل مشاة، وأقل من ألف فارس، في حين قاد أيلغازي قوة مؤلفة من أربعين ألف مسلم، وأقام روجر معسكره في ريف منعزل على أمل أن ينضم إليه بلدوين قبل وصول أعدائه، ولكن ايلغازي علم عن طريق جواسيسه المتنكرين بهيئة تجار مكانه تماماً، وعدد رجاله، ولم يكن لديه نية لانتظار قدوم بلدوين، بل قاد بدلاً عن ذلك قوته نحو الموضع المسيحي في 27 حزيران حيث وصله بعد الغسق، وحاصر المكان خلال الليل.

وعند الفجر في اليوم التالي قدم بعض الكشافة بأخبار تطيق العدو لهم. وكان في المعسكر بعض المؤن من الطعام والماء وأدرك روجر ألا خيار لديه غير تحطيم الشرك الذي وجد نفسه فيه، وقد كان يوماً حاراً خانقاً مثقلاً بالغبار من رياح الخماسين التي تهب من الجنوب، والتي أزعجت الجميع، وألقى

رئيس أساقفة أفاميا الذي كان مع الجيش موعظة في الجموع المجتمعة، وبعد سماع الاعتراف العام، منح الجميع الغفران، وباركهم حينما تشكلوا لجاهزية الهجوم، ثم هاجم في نظام كامل الطوابير المحتشدة من المسلمين، ولكن هذه المرة كان أعداؤهم متحدين، ومستعدين لهم بينما لم يكن لدى الإفرنج أي أمل في النصر، وتدبر حوالي أربعين فارساً أمرهم لشق طريقهم خلال صفوف المسلمين ووصلوا أنطاكية بأنباء النكبة، وفيما بعد هربت عصبة أخرى من الفرسان رغم إلقاء القبض عليها وأسرها، وقتل الباقون أو سجنوا، ومات روجر محاطاً بفرسانه الذين قتلوا معه بعد أن ناضلوا تحت لواء الصليب المرصع بالجواهر، ومع منتصف النهار انتهى القتال وبدأت الفرق المسلمة المنتصرة بتعذيب أو قتل السجناء، أما أولئك الذين لم يذبحوا بعد القتال، فقد أخذوا وسحبوا إلى حلب حيث جن جنون الناس فرحاً لدى مشاهدتهم يعذبون حتى الموت في الشوارع. وأعفي من ذلك رجل واحد، وكان فارساً اسمه رينالد مازيور، وكان أيلغازي أعجب بشجاعته في المعركة، وقد أجبر هذا الفارس على مشاهدة تعذيب الأسرى من بني قومه في شوارع حلب.

وكانت النتائج في هذه المعركة التي أسماها الإفرنج حقل الدماء ـ هامة، ولعلها كانت اكبر لو أن ايلغازي أتبع نصره بهجوم مباشر على أنطاكية التي تركت دون دفاع بالفعل، ولكنه أضاع فرصته ووصل بلدوين في وقت مناسب لإنقاذ المدينة، ومع ذلك، فقد تبددت أسطورة البأس الإفرنجي، وتعلم المسلمون أنه بإمكانهم هزيمة أعدائهم إذا ما توحدوا ضدهم، واعتدل الميزان جزئياً بعد خمسة سنين عام 1124، عندما استولى الإفرنج على صور بمساعدة أسطول بندقي كبير انضم إليهم منذ معركة حقل الدماء، وكانت صور آخر مدينة ساحلية كبيرة باقية في أيدي المسلمين وكانت خسارتها ضربة عنيفة لهم، ومع ذلك فإحدى تقلبات الحظ التي شكلت خلفية الحياة في الممالك الصليبية كانت أسر بلدوين الثاني مع الكونت جوسلين أوف كورتاني الذي تسلم الحكم في الرها، خالفاً ابن عمه بلدوين هناك، وكان حظاً سيئاً أن

يؤسرا من قبل أعدائهما، ويسجنا فترة من الزمن، ومع ذلك تدبر جوسلين أمره للفرار، وبعد ذلك بفترة قصيرة افتدت مورفيا زوجة بلدوين زوجها فعاد إلى مملكته في القدس.

ولم يعد قبل حدوث حادثتين كانتا ذواتي نتائج بعيدة المدى بالنسبة للإفرنج في الممالك الصليبية، حيث منع بلدوين من احتلال دمشق عندما كادت تسقط في يده وذلك بسبب حادث جوي، حيث كان القوت في شهر تشرين الثاني سنة 1129، خلال هجوم شنه بلدوين في لحظة ضعف من المسلمين، وبدا كما لو أنه لا شيء يستطيع أن يقف بين الجيش الإفرنجي الكبير وسقوط المدينة، عندئذ فتحت أبواب السماء، فتحولت الأرض إلى مستنقع من الأمطار الغزيرة، فانزلق المهاجمون في الأطيان، بينما مادت أرجل الخيول، وكان لابد أن يعترف بلدوين بالهزيمة.

وحدثت الحادثة الأخرى في الشمال وكانت أسوأ، وقامت بين جوسلين صاحب الرها وأمير أنطاكية الجديد ابن بوهموند الذي وصل لتوه من أوروبا ليتسلم الوارثة، حيث لم يتفقا بشكل جيد الواحد مع الآخر، فقد كانا حاسدين لبعضهما على نحو عنيف، وانتهزا كل فرصة من شأنها أن تؤدي إلى التشاجر.

وكانت النتيجة أنه عندما كانت حلب تموج في الفوضى بسبب اغتيال حاكمها، ضاعت فرصة ذهبية للاستيلاء على المدينة برفض القائدين الافرنجيين التعاون معاً بعضاً، وعندما سمع بلدوين تلك الأخبار احتد غير أن التخريب تم، لقد كانت كارثة، ما كانت لتحدث في ظروف أسوأ، لأن نجماً جديداً بدأ في الظهور في الأفق الإسلامي، حيث عين رجل يدعى عماد الدين زنكي أتابك في الموصل من قبل السلطان السلجوقي، ولم تمض فترة حتى زحف إلى حلب، ونادى بها للسلطان، ورحب به المواطنون هناك، ثم اتبع نجاحه بتعامله بخبرة وقسوة مع منافسية المسلمين المحتملين في المنطقة، إلى درجة أن اعترف به سيداً لشمال سورية.

ومن سوء الحظ أيضاً بالنسبة للافرنج في الممالك الصليبية أنه مع بداية عمل زنكي كحاكم صادفت سلسلة من النكبات الشخصية الأمراء المسيحيين، وكان بوهموند الثاني أمير أنطاكية الجديد أول من قاس منها، ففي شباط 1130 انهمك بوهموند في حملة ضد أحد جيرانه الأرمن، عندما فوجئ ببعض الأتراك الدانشمند فقتلوه ورجاله وقطعوا رأسه، ثم حنطه الأمير الدانشمندي وأرسله هدية إلى الخليفة في بغداد، فسر به. وفي آب من السنة التالية 1131 مات بلدوين بعد سقوطه طريح المرض فترة من الزمن، وبعد أسابيع مات ابن عمه وصديقه القديم جوسلين صاحب الرها إثر تلقيه جروحاً خلال حصار قلعة صغيرة قرب حلب، لقد كان بلدوين الأول بين الصليبيين الأوائل فقد حمل الصليب لفترة تقارب أربعين عاماً استجابة لدعوة البابا أوربان، ورحل من أوروبا مع أبناء عمه غود فري أوف بوليوس وبلدوين الأول، ورغم أن جوسلين لم يكن بخبرة بلدوين تماماً، لكنه كان في الممالك الصليبية لفترة ثلاثين سنة تقريباً. بحيث عرف طرقها، وعرف البلدان الإسلامية بشكل جيد، لذلك لم يكن بالسهولة تعويض الرجلين، خاصة في تلك الناحية، وفي حين بدأ المسلمون يتحدون تحت قيادة القائد زنكي، حكم القدر أن يخلف القادة الكبار قادمون جدد جاءوا من الغرب حيث كانوا عدائيين بحماقة، وحمقى في خصوماتهم بين الحين والآخر، وكان قد قدم فولك كونت منطقة أنجوا ورئيس قبيلة أنجوين القوية، إلى الممالك الصليبية بشكل خاص من أجل الزواج من ميليسيندا ابنة بلدوين على أساس أنها عندما تخلف والدها وتصبح ملكة القدس، فإنه سيصبح زوجها وملكاً على القدس معها، وفي أيلول سنة 1131 توجا كما ينبغي في كنيسة الضريح المقدس، وكان فولك أقل إثارة للنكبات بين الجيل الجديد من الحكام، فليس من المغلاة القول أن بعض الآخرين كانوا قذرين.

وبدأ الجزء الأول من فترة حكمه بالاضطرابات، فقد أظهر ابن جوسلين، والذي دعي جوسلين الثاني، كل علاقة تدل على رغبته في عدم

تقديم ولائه الإقطاعي للملك فولك، رغم وضوح أنه كان غير ملائم أن يحكم مخفراً مسيحياً هاماً في الشمال بمعزل عن إخوانه المسيحيين في الجنوب البعيد، وكان هذا رجلاً صغيراً غير جذاب وقصيراً، وأسمر اللون، وغليظ البنية في وجهه بثور، وذا أنف ضخم، وعيون بارزة مثل عيون السمك، وبسبب قرب المكان، ثارت فضيحة ارتبطت باسم زوجة فولك مع صاحب يافا المدعو هيو أوف بيوست الذي كان يعتقد تماماً أن لديها علاقة معه، وانقسمت البلاد إلى حزبين، وشاع شعور متزايد أن ثمة خطر حرب أهلية.

بين أولئك الذين ساندوا كونت يافا، وأولئك الذين اتخذوا جانب الملك، وكان لدى فولك بعض المشاكل في أنطاكية أيضاً، وبعد موت بوهموند الثاني بقيت المدينة دون أمير، ولكن لحسن الحظ ليس دون أميرة، فقد خلفت وراءه أرملة شابة تدعى ألس، وابنته الصغيرة كونتانس التي كانت وريثته، ومنذ ذلك الوقت الذي أرسل فيه رأس زوجها الشاب إلى الخليفة في بغداد، انهمكت ألس في محاولة ضمان الوصاية على المدينة لنفسها خلال طفولة ابنتها، وكان ذلك إجراء أقصى فولك عن شؤون أنطاكيا كلية، ولكنه صمم أن يمنع ذلك عن طريق القانون حيث كان هو المستحق الشرعي للوصاية.

وخلال تلك الأحداث، استفاد زنكي من كل فرصة قدمت إليه في الفوضى عند الإفرنج، لجعل الأمور تسوء أكثر ضدهم، فكان يشن الهجمات ويستولي على القلاع الاستراتيجية، بينما كان فولك مشغولاً في مشاكله الداخلية عن الدفاع عنها، ووصلت نجاحات زنكي في ذلك الوقت إلى ذروتها عندما هزم جيشاً إفرنجياً قرب قلعة رفنية وأسر كونت طرابلس في تلك العملية، وطارد فولك والباقين داخل القلعة التي حاصرها أخيراً، ومن أجل إعطاء فولك راحة واسعة ودهشة مساوية تركه زنكي يغادر مقابل ملكية القلعة رغم اعتبار فولك أنه الكاسب في هذه الصفقة غير أن القائد المسلم عرف، ما كان يفعله حيث كانت قلعة رفنية ذات أهمية استراتيجية عظيمة.

ولا ندري إلى أين كانت مواهب وطموحات زنكي قد قادته لولا أن شؤون الممالك الصليبية وجاراتها لم يعترضها ظهور عامل جديدة وغير متوقع في الوضع السياسي، فلعدة سنين تجاهل الإفرنج والمسلمون الامبراطور البيزنطي وإدعاءاته، كما كان الإمبراطور مشغولاً على الحدود الغربية في تتبع أعقاب الصليبيين، فاستعاد الكثير من الأناضول، وكان ألكسيوس قد مات سنة 118 وخلفه ابنه جون كومينوس الذي كان في الثلاثين من عمره عندما أصبح امبراطوراً، وكان هذا رجلاً صغيراً صارماً ذا شعر وبشرة غامقين، ورغم أنه كان منتظماً ذاتياً ومقتصداً في عاداته الشخصية إلى درجة التقشف، لكنه كان كريماً ولطيفاً مع الآخرين، وحاكماً عادلاً وقادراً، كما كان هاماً جداً لكونه إحدى الشخصيات العامة العظيمة القليلة في ذلك الوقت، بحيث لم يكن لدى أحد ما يقوله ضده، وقد لقبه تابعوه بجون الطيب. لكنه أخته آناكومينا كرهته وغارت منه.

وورث الامبراطور جون من أبيه ألكسيوس أسطولاً بحرياً قوياً، وجيشاً كبيراً منظماً، ومتكلماً بعدة لغات نوعا ما، ثم خزينة مليئة، وفي الحالة السوية كان عسكرياً أكثر منه متوددًا، وأمضى السنين الأولى من حكمه يقلص ممتلكات أعداء الإمبراطورية في الغرب، ويتصارع مع الأتراك الدانشمند في الأناضول، وحالما جعل الامبراطورية آمنة من هجوم ما في تلك النواحي، حول انتباهه إلى سورية حيث قصد أن يفرض نفوذه على أنطاكية، والقدوم لمساعدة الإفرنج ضد زنكي، وكانت هذه الأهداف متناقضة جزئياً، ولكن فرضتها على جون حقائق الوضع السياسي، فقد كان على الإفرنج أن يستعيدوا تذكر أن أنطاكية والأراضي الأخرى التي فتحوها كانت أجزاء من الامبراطورية البيزطية لعدة قرون، ويتذكروا أيضاً أنهم اقسموا بأنفسهم أن يكسبوها لصالح العالم المسيحي كتابعين مخلصين للامبراطور البيزنطي، ورغم أنهم نقضوا أيمانهم بوقاحة. لكنهم بقوا مسيحيين، كما بقي جون زعيماً لأقدم وأضخم دولة مسيحية فوق الأرض، وكان ملزماً مبدئياً أن يقدم لمساعدتهم ضد

أعدائهم المسلمين، ولذلك زحف في سنة 1137 على رأس جيش بيزنطي جرار نحو الشرق، بنما كان يحمي جناحه الأيمن أسطوله وعبر منطقة كليكية حيث خضعت له مدنها الواحدة بعد الأخرى، وقلص عدد القلاع الأرمنية التي كانت من الطيش ألا تدعه دون الإعاقة في تقدمه المنتصر، وأجفلت أنباء قدومه زنكي ونبهت الإفرنج الذين كانوا مدركين كثرة عهودهم بالإخلاص لوالد جون، ولكنها نكثت مع السنين.

وكان أمير أنطاكية في ذلك الوقت ريموند أوف بواتيو، وهو الابن الأصغر لدوق منطقة أكوتين الذي هرب إلى داخل البلاد وعمره سبعة وثلاثون عاماً لكي يتزوج الأميرة الصغيرة كونستانس مخادعاً أمها ألس التي كانت لديها خطط أخرى لابنتها، ولم يخطر على بال أحد أن كونستانس كانت ذات تسع سنوات فقط من العمر، وكان ريموند وسيماً ومتحلياً بصفات تجعل الرجل مشهوراً في حين لا تجعله حكيماً، وحين قدم الجيش البيزنطي إلى أسوار أنطاكية كان ريموند بعيداً عنها، فأغلق الأهلون الذين كانوا غير متأكدين ماذا يفعلون في غياب أميرهم، أغلقوا الأبواب في وجه الإمبراطور جون، الذي سارع إلى فرض الحصار على المدينة، وقبل ان يصبح الحصار كاملاً سارع ريموند إلى العودة، وتدبر أمره في الدخول واستلام الدفاع عنها، وعندما بدأت آلات الحصار البيزنطية تدك أسوارها، أرسل الحليف القوي الواقف ضد زنكي، ينصحه الاعتراف بمطالب الامبراطور العادلة، وبنوع من المضض، أرسل ريموند رسله إلى الامبراطور جون يخبره أنه موافق على الخضوع له، وأداء القسم على الولاء له والبيعة أيضاً، فكف جون عن ممارسة أي ضغط آخر عليه، كما لم يلح في دخول المدينة رغم أنه أصدر أوامره برفع الراية الامبراطورية فوق القلعة ليرى العالم كله من السيد الحقيقي هناك.

وحتى عند هذا التاريخ المتأخر، لو قرر الإفرنج التعاون بإخلاص تام مع البيزنطيين لكانت خطط زنكي قد أحبطت، ولربما بقيت الممالك الصليبية مدة أطول مما بقيت، ولكن الغيرة أو الحسد الشخصي، والامتيازات قصيرة

المدى أعمتهم، وعادوا إلى أساليبهم القديمة حالما عاد جون إلى القسطنطينية، وعندما قاد جيشه مرة أخرى داخل سورية في السنة التالية، وكانت هذه المرة لقتال المسلمين وافق ريموند صاحب أنطاكية وجو سلين الثاني صاحب الرها على مساعدته في حملته، وعندما بدأ القتال الفعلي تراجعا مخلفين البيزنطيين الذين انخدعوا بنجاح قريب، لو أن حلفاءهم شغلوا دورهم بإخلاص، ولم يكن ريموند وجوسلين يخشيان إلى حد الكآبة قوة الإمبراطور الكبيرة وموقفه فحسب، بل كانا غيورين على نحو عنيف، وقد صمما ألا يدع أحدهما الآخر يفوز بامتياز العمل مع جون، وبالنتيجة تحققت نجاحات قليلة، وعاد جون أخيراً إلى وطنه.

وفي السنين التي تلت، لم يواجه إلا قلة الأمانة والعداء من قبل ريموند وجو سلين، وقرر في سنة 1142 العودة مرة أخرى وتأديبهما بالقوة إن لزم الأمر، وقبل أن يقوم بذلك مات إثر حادثة سقوط، بينما كان يصطاد دباً وحشياً فجاء موته راحة كبيرة لريموند وجوسلين، حتى أن فولك ملك القدس لم يأسف لسماع تلك الأخبار، ولكن لم تكن راحتهما تعادل راحة زنكي البعيد النظر، الذي أدرك أنه لم يبق شيء يمنعه من الإفرنج، كما تلا موت الامبراطور بعد أشهر موت الملك فولك حيث سقط عن حصانه بينما كان يصطاد أرنباً، ومات في الحال، وتسلمت أرملته الملكة ميليسندا زمام الحكم بأيديها، ولم تسر فكرة حكم المرأة جميع الأمراء في قيادة المملكة، وتوج ابن فولك الأكبر تحت إلحاحهم الجزئي ملكاً بلقب بلدوين الثالث، ولم يتجاوز عمره ثلاثة عشر عاماً.

ولم يضع زنكي مثل تلك الفرصة الذهبية التي قدمها موت ألد خصمين مسيحيين قويين، وفي الواقع، بادر بعد موت الامبراطور، وقبل أن يقتل الملك فولك إلى الإمساك بمبادرته العسكرية بالقيام بمحاولة للاستيلاء على دمشق، ولكنه ارتكب خطأً فظيعاً لأنه أخاف الدمشقيين جداً إلى درجة أنه رماهم في أيدي أعدائه، الذين كان قد أبرم معهم معاهدة دفاعية، وعندما مات فولك لم

يقم زنكي بأي خطأ وغزا مقاطعة الرها، وحاصر المدينة نفسها في حين كان جوسلين في مكان آخر بعيداً عنها، وحالما سمع جوسلين بالخبر ناشد على عجل من أجل النجدة كلاً من ريموند من أنطاكية والملكة ميليسندا من القدس التي أرسلت جيشاً لمساعدته بينما رفض ريموند الذي كان يكرهه أن يقدم أي مساعدة، وقرر جوسلين أن يبادر إلى علم شيء حتى قدوم الجيش من القدس وكان واثقاً أن أسوار الرها الضخمة ستصمد حتى ذلك الوقت، ولم يحدث ذلك، وبعد حصار دام أربعة أسابيع، وقبل وصول قوات ميليسندا إلى المدينة استسلمت إلى زنكي، وبرهنت المملكة الصليبية الأولى التي أسست أولاً أنها الأولى أيضاً في الدمار.

ولم تكن قوات زنكي أكثر إنسانية من تلك المسيحية بعد الاستيلاء على أنطاكية وسقوط القدس، ففي أمسية عيد الميلاد سنة 1144 تدفقت داخل الرها وذبحت كل من وجدته في طريقها، فانداست رقاب آلاف الرهاويين حتى الموت في ذعر جماعي للنجاة من الجنود المسلمين، وامتلأت المدينة بالجثث، غير أن زنكي كان أقل تعطشاً للدماء من رجاله، وعندما استعاد درجة معينة من السيطرة عليهم، أصدر أوامره بتوفير دماء السكان المسيحيين المحليين في المنطقة، واستثنى من ذلك جميع الإفرنج، وأطيعت أوامره فمحي أثر الإفرنج حتى آخر رجل، بينما بيع الأطفال والنساء في سوق النخاسة.

وفي الأشهر التالية، طهرت معظم جيوب المقاومة في أيدي الإفرنج عند الجانب الشرقي من نهر الفرات، وكان بالتأكيد قد استمر في الهجوم على الأراضي التي لا زالت تحت قبضة الإفرنج غرب النهر وفي شمال سورية، لو لم يقتل في ليلة 14 أيلول سنة 1146 من قبل خصي، كان قد أنبه زنكي بغضب لشربه من كأسه الخاصة، واستقبل نبأ موته بالراحة والسرور من قبل أعدائه، ولابد أنهم كانوا أقل سروراً لو أنهم علموا ماذا قدر لهم أن يعانوا على أيدي ابنه نور الدين، الذي خلف والده بعد فترة اعتيادية من التآمر الأسروي،

والمؤامرات المضادة والجرائم السياسية، لأنه لو أن الكلمات التي نطقها رحبعام بن سليمان، عندما خلف والده على عرش اسرائيل قد خرجت من فم نور الدين، لم تكن معارضة من وجهة نظر الإفرنج حينما قال: «نكل بكم أبي بالسياط، وسأنكل بكم بالعقارب».

obeikandl.com